البوكر للرواية العربية
حكم قيمي أم قيمة عالمية؟

أ.د سليمة لوكام
جامعة سوق أهراس

الملخص:

أثارت الجائزة العالميّة للرّواية العربيّة "البوكر" منذ ظهورها، جدلا كبيرا في أوساط المثقفين والأكاديميين من روائيّين ونقّاد وباحثين.

ففي الحين الذي أبدى فيه بعضهم رأيه في مدى استحقاق الفائزين بها بالنّظر إلى مسارهم الإبداعيّ، اعترض البعض الآخر على النّصوص نفسها ممّن رأوا أنّها غير جديرة بوسم "العالمية".

تهدف هذه الدّراسة إلى تحليل بعض نصوص "البوكر" بغية الوقوف على خصوصيّاتها الموضوعاتيّة، وخصائصها الجماليّة مع البحث عن إمكان وجود ما يؤكّد فرادتها ويبرّر جدارتها.

Résumé:

Depuis son apparition, le prix mondial du roman arabe « Booker » suscite une polémique au sein des milieux culturels et académiques arabes (romanciers, critiques, chercheurs…).

Certains d'entre eux ont discuté le mérite des lauréats vu leur parcours, d'autres se sont opposés aux textes qu'ils jugent indignes de cette qualification « mondiale ».

Cette étude tend à analyser quelques textes « booker » afin de s'approcher de leurs propriétés thématiques et leur caractéristiques esthétiques en s'arretant sur une éventuelle présence d'aspects qui confirme leur particularité et justifie leur mérite.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580

مقدمة:

درجت جائزة "البوكر"Booker العالميّة للرّواية العربيّة، منذ ظهورها في منتصف العشريّة الأولى من الألفية الثالثة، على انتقاء نصّ روائيّ عربيّ ترشّحه، من مجموع نصوص كثيرة، للتتويج باللّقب. وقد أثارت التّجربة جدلا بين الروائيّين العرب، وبين النّقاد والدارسين، وحتّى في أوساط القرّاء.

فبعض هؤلاء يرى أنّ الرّواية حقّقت حضورا من حيث كمّها، وتميّزا من حيث تيماتها وجماليّاتها يؤهّلانها لحيازة جائزة من هذا الصّنف، بينما يرى بعضهم الآخر أنّ الدوائر التي تقف وراء هذه الجائزة لا تحتفي بالرواية العربيّة لاعتبارات فنّية جماليّة بقدر إيلائها الاهتمام الأكبر إلى مدى استجابتها لمقتضيات فكريّة وحضاريّة خاصّة، وتوافقها مع توجّهات سياسيّة وثقافية بعينها.

والحقيقة أنّ التفرّس في مجموع النصوص الفائزة بجائزة "البوكر" قد أشرعت أبوابا لطرح جملة من الأسئلة الصارمة التي ترتبط بفكرة العالميّة ومعاييرها:

- هل استطاعت النصوص الفائزة بـ "البوكر"وهي تنشد العالمية، رفع المحلّي إلى المستوى الإنساني؟ وإلى أيّ مدى راهنت نصوص "البوكر" على حضور الآخر لتحقيق التجاوز؟
- هل حققت نصوص البوكر تميّزا على المستويين الموضوعاتي والجمالي، وهل صيّرها هذا التميّز حقيقة بجائزة عالمية؟ هل رُوعيت معايير أخرى غير جماليّة في انتقاء النصوص؟

إذن، أثارت الجوائز في مجال الأدب وفي غيره من المجالات التي يتبارى فيها المبدعون، نقاشات حول مدى استحقاق الفائزين بها، ومدى نزاهة أحكامها، والخلفيات التي تتحكّم في توجّهات القائمين عليها، ولعلّ أوضح مثال يُساق في هذا الموضع الخلاف الذي ظلّ يرافق كلّ إعلان عن جوائز نوبل، والحديث عن انحياز هذه الجائزة سياسيا وإيديولوجيا، وتحكّم المركزية الأوربية الأميركية فيها، خاصة في مرحلة البدايات، وقد تبدّى ذلك الجدل في أوساط المثقفين والنقاد العرب مع حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل للآداب سنة 1988 حين رأى بعضهم أنّ "الجائزة لم تمنح لنجيب محفوظ إلاّ لموقفه المهادن من السادات والصلح مع إسرائيل، وزعم المتحدثون باسم جماعات الإسلام السياسي أنّ الجائزة جزء من حرب صليبية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580

جديدة...ومقابل هؤلاء وأولاء كان الصوت الغالب الذي يرى أنّ نجيب محفوظ أكبر من الجائزة التي منحت لمن هم أدنى منه قيمة بمراحل ..."[1]

وأيّا كان الشأن فقد مُنحت الجائزة عن رواية "أولاد حارتنا"، وإن كان ثمّة إقرار بتميّز أو بروز فإنّه إقرار بثبوت قدَم الرواية العربية، وبلوغها من النضج مبلغا مكّنها من الحضور المعقول في مثل هذه المنابر التي – على الرغم ممّا قيل عن تحيّزها السياسي أو توجهّها الإيديولوجي–لا تحتفي إلّا بالمتميّز، ولا تهتم إلّا بمن حقّق حضورا إبداعيا لامس به واقعا إنسانيا معيّنا.

والأمر ذاته يمكن أن ينسحب على جائزة أخرى تتعلق بالرواية أيضا هي جائزة "الغونكور" Goncourt الفرنسية التي تُعدّ من أهمّ وأشهر الجوائز التي تمنح للفرنسيين كما تمنح لغيرهم ممّن يكتبون بالفرنسية، وقد أسالت في أواخر الثمانينيات، حِبْرَ كثير من الدارسين والمتابعين للشأن الثقافيّ في فرنسا وخارجها، حين مُنحت للأديب المغربي "الطاهر بن جلون" عن روايته " ليلة القدر" (La nuit sacrée) التي وصفها النقاد بـ "الإقزوتيك"، ووُصِف صاحبها بالموالاة لدوائر سياسية وثقافية بعينها، وهو الموقف نفسه أو أعنف منه الذي قوبل به الكاتب الصحفي "كمال داود" حين فاز بالجائزة عن رواية "ميرسو أو المحاكمة المعكوسة"(Meursault contre enquête) التي رأى بعض من يُعارضوها أنّها حصلت على الجائزة بسبب تجديفها على الدين وتدنيسها للمقدّس، في حين رأى البعض الآخر أنّ الأمر يرتدّ إلى ضربها الموجع على وتر السياسي والتاريخي المشترك الفرنسي الجزائري.

وفي هذا الموضع يمكن القول إنّنا أمام مستويين في التعاطي مع المسألة:

– أحدهما موصول بالجهة التي أصدرت حكمها بتميّز النص، ويُفترض أن يكون هذا الحكم مؤسّسا على مجموعة من المؤشرات العامة التي شكّلت وحدته التيمية والجمالية.

– وأمّا الثاني فتمثّله الجهة التي تتلقى هذا النص في ضوء هذا التميّز، وهم جمهور النّقاد والقرّاء، وتتباين آراؤهم ورؤاهم في الاحتفاء بما هو جمالي في النص وما هو تيمي، لكنّهم في الأعمّ الأغلب ينصرفون إلى الجانب التيمي أي إلى ما تطرحه الرواية من قضايا وما تعالجه من أفكار، وأكثر من هذا، ما تكشف عنه من توجّهات، وما تدلّ عليه من إيديولوجيات.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580

كان لابدّ من توطئة عامة كهذه ننشر من خلالها بعض الضوء على ما هو سائد عندنا، وشائع في أوساطنا الثقافية العربية. أمّا العيّنة التي نبتغي الوقوف عندها بحثا و تقصّيا، فتتعلّق بجائزة البوكر العالمية للرواية العربية التي أغرت منذ إنشائها الروائيين العرب بالتسابق على الفوز بها، فغدت في ظرف زمني قصير أشهر جائزة خُصَّت بها الرواية العربية علما أنّها تُدار من هيئتين ثقافيتين بريطانية إماراتية، وأنّها تشكّل في كلّ سنة لجنة قراءة تضطلع بمهمّة قراءة الروايات المرشّحة وإصدار الحكم بشأنها شرط أن تكون قد صدرت في السنة السابقة لسنة ترشّحها.

وبعيدا عمّا أُثير من نقاشات حول هذه الجائزة القيّمة مادّيا ومعنويا، وبصرف النظر عمّا وُجِّه إلى القائمين عليها والفائزين بها من انتقادات، فإنّنا مطالبون بالوقوف عند النصوص نفسها قراءة وتقصّيا لملامح التميّز والخصوصية التي أهّلتها دون غيرها للظّفر بلقب أحسن رواية عربية، خاصة أنّ عُمْر الجائزة يكاد يبلغ العِقْد، وأنّ عدد الروايات التي وصلت إلى القائمة القصيرة قد تجاوز الأربعين، ممّا يعني أنّ ثمّة كمّا إبداعيا روائيا جديرا بأن يُمحَّص وأن يُتّخَذ متكّأ يمكّن من تحسّس مواضع معيارية، أو تقرّي بصمات مشتركة.

ولعلّنا ننطلق من أوّل نصّ فاز بالجائزة وهو "واحة الغروب" للروائي المصري بهاء طاهر، وهو نصّ حاز على إعجاب القراء والنقاد عموما، ربّما لأنّه بدا كلاسيكيا حلّق بهم في أجواء قرّبتهم من زمن بدايات الرواية العربية سواء أتعلّق الأمر بمعماره وتشكيله الجمالي (الخطّية الزمنية، تنامي الحبكة، حضور السارد العليم...) أو بما حواه من تيمات، وما تناول من قضايا، "فقد بُني التخيل التاريخي في واحة الغروب برؤية لها صلة بالاستعمار"[2] من خلال توظيف مميز للتاريخ المصري الحديث - أواخر القرن 19- من خلال شخصية ضابط الشرطة "محمود" في علاقته بزوجته الأيرلندية "كاترين" أيام ثورة عرابي، وبَحْث الزوجة الغربية عن قبر الإسكندر الأكبر لتُطرَح العلاقة بالآخر في عمقها التاريخي من جهة، والاشتغال على الغرائبي في واحة سِيوَة من جهة أخرى،فضلا عن حضور المعرفي الإنسانوي، قصص الحب الصغيرة المعقدة والمتشابكة...) فكان التتويج بلقب أفضل رواية عربية من هذه الزاوية مقبولا، أو لِنَقُل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580

مبرّرا بالنظر إلى مسيرة صاحبها الإبداعية التي ازدانت في أكثر من مرّة بأعمال روائية مميزة مثل "قالت ضحى" و"خالتي صفيّة والدّير"، وخاصة "الحُبّ في المنفى"

ولذلك لم تُثِر "واحة الغروب" من الجدل ما أثارته الرواية الثانية الفائزة بالجائزة وهي رواية "عزازيل"، فقد آثر صاحبها "يوسف زيدان" العزف على وتر الدّيني الطّائفي لما اختار التّاريخ الدّيني المسيحيّ وتناول منه فترة بعينها ليبسط من خلالها مسائل الاضطهاد والتّنكيل اللذيْن تمارسهما الكنيسة ورجالها في حقّ من يعارض فكرة، أو يدعو إلى إعمال عقل، "فالأحداث تتنزّل عند منعطف ثقافيّ وتاريخي...وقد عرضت الرواية صراعا بين الوثنية والمسيحية في الإسكندرية، وبين التأويلات المتباينة حول طبيعة يسوع."[3]

ولأجل ذلك جرى التركيز على شخصيتين هما: الراهب "هيبا" الباحث عن الحقيقة في مواجهة إغراءات الذّات تزمّت الكنيسة ورجالها، و"هيباتيا" الداعية إلى حرية الفكر والعلم.

وعلى الرغّم من لعبة المخاتلة والتمويه التي استهلّ بها الروائي نصّه بنفي نسبتِه إليه، وإشارته إلى اكتشافه مخطوطات سِريانية قديمة تتضمن حكايات وأخبارا كتبها راهب يُدعى "هيبا"، قام هو بترجمتها ونشرها،" فما بين يديه وأيدينا (رُقوق حَبَّرَ فيها الراهب هيبا رواية صَيّرها الروائيّ "نصّا" مترجما في "كتاب" يضمّ "سيرة".[4]

وهو إذ يفعل ذلك، فإنّه يحاول إرساء طريقة جديدة في الكتابة تقوم على التنصّل من مسؤولية قراءة التاريخ والاكتفاء بالقيام بوظيفة عرضه وإخراجه، مع الحرص على استغلال هامش حريّة يمكّن من إلباس هذا التاريخ اللبّوس الذي يوائم الرّؤية التي يُراد إنفاذها، أو الخطاب الذي يُرام تمريره.

ونلاحظ هنا أن الرواية الثانية الفائزة قد استجارت هي أيضا بالتاريخ (خطية الزمن)، استحدثت "المخطوط" تمعن به في التّواري، كما سعت من خلاله إلى مناوشة تخوم الخرق الشعري في محاولة لصهر التيمي الرؤيوي في ذوب طقس كتابي جماليّ مختلف وممتع.

ويكاد هذا الأمر أن يتقاطع مع غير واحدة من الروايات الأخرى الفائزة التي طفقت تنبش في التاريخ تبحث فيه عن الممتع والمحرّك للسّواكن، وقد يكون عن المشبع للفضول المثير

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580

للجدل أيضا، ولعلّ ذلك أن ينطبق على روايتي "اليهودي الحالي" للروائيّ اليمني "علي المقري" و"دروز بلغراد" للروائيّ اللبناني "ربيع جابر".

مَتَحَتْ رواية "اليهودي الحالي" من تاريخ يمني يكاد يكون مجهولا عند الكثيرين، وهو الموصول بطائفة اليهود التي كان لها حضورها الخاص في هذه المنطقة "تدوين حوليات السنين لما جرى لليهود في بلاد اليمن، لولا ما حدث لجدّي وجدّتي وأبي من مصير"[5]، ووقَفَتْ تحديدا عند الصراعات الطّائفية التي كانت تنشب من حين لآخر بين المسلمين واليهود، من خلال قصة حبّين "فاطمة" المسلمة و"سالم" اليهودي، كانت قصة مستحيلة فصارت ممكنة بزواجهما، وقد طُرحت مسألة الأقليّات هنا من زاوية حادّة، مرتبطة بالهوية و الانتماء والوجود، كما وُضعت قيم على المحكّ كالتسامح والحوار والتاريخ المشترك.

إذن، راهنت الرواية تيميّا على توليفة اجتماعية تاريخية حضارية، تعانق فيها الرومانسي الحالم في علاقة فاطمة و"سالم" بتفاصيل اليومي الحميم في مدينة "ريدة"، ثمّ انضفر كلّ ذلك بالفكري الحضاري من خلال فعل القراءة الذي مارسه بطلا الرواية، وكان سببا في تقارب قناعاتهما.

"كنت أشرح لفاطمة جملا تقرأها بالعبرية، في التلمود، ولا تستطيع فهمها.تندهش لما تقرأه. بشكل أخصّ، أثارتها الأناشيد والمزامير."[6]

وفي الصفحة نفسها نقع على المقطع السردي التالي: "قرأت "الفِصل في الملل والأهواء والنِّحل" لابن حزم الأندلسي، و"المِلل والنِّحل" للشهرستاني، قرأت الأسفار والأناجيل بالعربية، وكتابا عن الأصنام لابن الكلبي، ولا أنسى القرآن طبعا، وفصوص الحكم لابن عربي،وديوان الحلاج..."[7]

أمّا جماليّا، فلم تندّ الرواية عن مألوف الروايات الكلاسيكية، إن جاز لنا هذا التعبير، فقد غطّى ثراء المتن ودسامته على كل ما يمكن أن يعتور المبنى من قصور أو يخالط شعريّته من رتابة، ومادّتُه التي انسابت غزيرة تنوس بين سرد أخّاذ ووصف باذخ أغنت وأَوفت.

وعلى الرغم من كلّ هذا، بل ومع كلّ هذا، أليس بوسعنا طرح السؤال الذي طرحه الناقد أحمد المديني: "إنّما لِمَ هذا الجهد كله؟ ولِمَ هذا العمل أصلا؟ فمن المؤكد أنه يطرح أكثر من علامة

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580

استفهام، وقد يغري بالتسرّع في وصف وتقويم كلّ إيديولوجيا كامنة ومحرّكة لأيّ نصّ يشغّل التاريخ، كيف إذا ارتبط بالمسألة اليهودية، التي هي الوجه الآخر للقضية الفلسطينية؟"[8]

ولا تكاد تخرج رواية "دروز بلغراد" عن هذا السرب سواء أتعلّق الأمر باستمداد نسغها من التاريخ تقتات من مخزونه، أو باستمرائها الاشتغال على الطائفي العرقي والديني والمذهبي، وقد ألفى الروائي في تاريخ الشام ولبنان تحديدا ما يَسنِد مَحكيّه، ويغذّي التخييل فيه إلى حدّ بعيد.

فحكاية "حنّا يعقوب" المسيحي بكلّ تفاصيلها وجزئياتها لم تخرق مألوف الروايات التي تتّخذ من التاريخ تيمة مركزية، وممّا يحفّه من حروب ومسائلِ أقلّيات وطوائف روافدَ تُشعّب مساراتها، وممّا يترتّب عن ذلك من تيمات فرعية مثل مآسي الاضطهاد والتنكيل التي تُذكي الاحتدام الدرامي فيها وتُسعّر أواره.

وعلى الرّغم من السّأم الذي يمكن أن يتسرّب إلى القارىء جرّاء الإغراق في تقتيم أجواء عالم تخييليّ أجهد الروائي نفسه في تشييده قريبا من وقائعيّة التاريخ من زاوية، "وقعت حرب أهلية في الجبل الذي يظلّل بيروت، وبعد معارك ومذابح دامت ثلاثة أسابيع كسر الدّروز المسيحيين واستولوا على جبل لبنان."[9]

وبمحاذاة عجائبيّة الحكواتي من زاوية أخرى: "هذه حكاية حنّا يعقوب وزوجته هيلانة قسطنطين يعقوب وابنتهما بربارة"[10]، وعلى الرغم أيضا من الإمعان السّافر في تشكيل شعريّة للقبح عبر مقاطع سرديّة أو وصفيّة مطوّلة تكرّس رؤية متصالحة مع التاريخ تنهض على فكرة التسامح الديني والعرقي والمذهبي من خلال: "قلّدهم. صلّى مع الجماعة صلاة المسلمين...شعر بأنّه المسلم الفقير سليمان مع أنّه بائع البيض المسيحي حنّا يعقوب من بيروت الذي بيته على حائط كنيسة مارإلياس الكاثولكية..."[11]

فإنّ المتقصّي لأنحاء النظر في تشكّل عالم الرواية يصل بلا ريب إلى قناعة مفادها أنّ "ربيع جابر"مثل أغلب من حصل على جائزة "البوكر"، كان قد وصل إلى القائمة القصيرة للجائزة في سنوات ماضية، وهذا يمكن أن يُقرأ من زاويتين: ترتبط إحداهما بالروائيين أنفسهم الذين بَدَوا وكأنّهم قد توقّعوا ملامح المعايير الجمالية والموضوعاتية التي يُرجع إليها في تثمين

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580

النصوص الروائية فاشتغلوا وفق هذا التوجّه، وتتعلّق الأخرى بمسألة تخطّي المسائل الإيديولوجية والفكرية والسياسية والدينية بالتركيز على إحاطة إناسية أنثروبولوجية بعينها، فالروايات التي تمّ تناولها لحدّ الآن خاضت في هذا الموضوع، بل إنّها قدّمت معرفة وافية فيما يتعلّق بالخصيصات المميزة لتجمّعات بشريّة ظلّت على الأقلّ بالنسبة لعامّة القراء مجهولة، فأهل واحة سيوة من البدو ظلّوا بعيدين عن هذه العوالم الروائية إلّا فيما ندر، كذلك الأمر بالنسبة إلى الطوائف اللبنانية كالموارنة والدروز و غيرهم، وخصوصية يهود اليمن الذين سكت عنهم الأدب.

ولعلّ هذا ما أغرى الروائي الكويتي الشاب "سعود السنعوسي" الذي وجد في المجتمع الخليجي، والكويتي تحديدا ما يغني، فكانت رواية "ساق البامبو" التي لامست و بجماليّة عالية بعدا إناسيا ثريّا و متشابكا إذ لم يكتفِ فيها الروائي برصد ظواهر طائفية، أو خصائص عرقية فحسب، وإنّما قدّم معرفة يمكن نعتها بالشاملة أو العميقة، خاصة لما امتدّت إلى الآخر، ولكنّه ليس الآخر الغربي الأوربيّ الذي ألِفناه مركزيّا يُذهب إليه، إنّه الآخر الآسيوي المغيّب والمهمّش، هي العمالة الآسيوية في الخليج ممثّلة بالفليبينيين، بانتماءاتهم الدينية والحضارية والثقافية في تفاعلهم مع أهل هذه المنطقة من الأرض العربية التي بقيت إلى حين، بمنأى عن أنظار الروائيين، و إن حضرت فلم تعدُ أن تكون في شكل نُتَف أو إطلالات عابرة.

ولذلك سلك "السنعوسي" في روايته مسلكا يُؤمّن له سُبلَ الحكي، ويعصمه من خطر التكرار في عالم فيه "تعالت بعض الأصوات النّقدية الغربيّة معلنة موت الرواية وتصدّع سرديّتها وتلاشي حبكتها القصصية."[12]

فقد عمد إلى توليفة هندسية أنشأ تصميمه وفقَها، بعد أن أخذَتْ من فكرة إثبات السّند مرتكزا، ثم طفق يُفاعل بين مواد تسعفه في الرصّ و التعمير، فكان منها إزجاء المعرفة في جانب الدين والسياسة والاجتماع والتاريخ، عن الكويت والفلبين على حدّ السواء، مع نشدان الإمتاع المنكّه بمنطق غرائبيّ عبر حكي رِحْلِيّ انتظم ضمن جَوْس تَخَلَّلَ مضارب شعبية في الفلبين العميقة رفقة سارد شخصية تولّى بنفسه مهمّة التعريف و التعليق و التوثيق، ووُشّي كل ذلك بحياد قصّ وانسياب لغة، فاستقام عمران الرواية على النّحو الذي جعلها تنتظم ضمن جنس الرواية كما نعرفه، وفتنة الرواية التي نهفو إلى معرفتها.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580

في هذا الموضع لسائل أن يسأل: هل الرواية مطالبة بتحصيل معرفة معيّنة حتّى تكون معنيّة بتوصيلها، فيُقاس نجاحها إبداعيّا بمدى كفاية الجرعة المعرفية وأصالتها و ندرتها؟

لا شكّ أنّ إجابتنا ستكون بالطبع نفيا قاطعا، وسنستدرك بالقول: ثمّة جوانب أخرى كتميّز الجماليّ و الشعريّ، بالقدرة على تنضيد عالم التخييل زمانيّا وفضائيّا، و الاشتغال بمهارة على إدارة الأحداث وسبكها مع ما تنهض به الشخصيات من أدوار وما تنشره من حضور، فضلا عن براعة المؤلف في التّواري وإجادته لعبة الغواية السردية دون خطابية سافرة أو تسجيلية ممجوجة.

وهكذا نكون قد عدنا إلى نقطة البدء: هل العودة إلى الرواية التقليدية بعد أن أُجريت عليها صنوف من التجريب والحساسيات التي نأت بها عن حدودها الأجناسية على رحابتها، وبعد أن أُثقل كاهلها بضروب من الموضوعات والتيمات التي ناءت بحملها على الرّغم من طاقتها على الاحتواء، هو الذي صنع نجاح هذه الأعمال الروائية؟ وبصيغة أخرى هل هي نوستالجيا زمن الرواية الجميل؟ هل هو الحنين إلى النمط الروائي الكلاسيكي الذي سارت فيه الأحداث وفق خطّية زمنية متتابعة، فليس ثمة تشظية زمن ولا تكسير لخطّيته، ولا اشتغال على تداع، ولا استدعاء للاوعي، ولا ترحيل تراث، ولا توظيف أسطورة، ولا نداء عجائبي، ولا إجراء للغة كابوسية، ولا تشييء لشخصيات، بل إنّنا ألفينا هذه النصوص حين توظيفها التاريخ تعمد لا إلى تطويعه بل تؤثر الرحيل إليه (عزازيل ودروز بلغراد واليهودي الحالي)، وحين ترصد واقعا راهنا تمعن في التوثيق (ساق البامبو) وحين تجرّب العجائبي تتكّىء على مرجعيّ مستعار، وسيأتي تفصيل لذلك لاحقا.

أمّا آخر روايتين فازتا بجائزة "البوكر" فقد أثارتا بعض الدهشة والاستغراب لدى الكثيرين، ويتعلّق الأمر برواية "فرانكشتاين في بغداد" للعراقي أحمد السعداوي، ورواية "الطلياني" للتونسي "شكري المبخوت".

ونبدأ مع الرواية الأولى ونطرح السؤال: ما الذي رُوعي هذه المرّة من معايير جعل رواية "فرانكشتاين في بغداد" العراق تفتكّ الجائزة؟ أيكون البعد العجائبي –إن صحّت تسميته

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580

كذلك- هو الذي لفت الانتباه؟ هل حملت الرواية خرقا في هذا المستوى علما أنّ في الرواية أصداء استعارة من هذه الناحية؟

بدءا من العنوان، يتشيّد الحكي في الرواية على إشاعة الغريب أو العجيب "فرانكشتاين" وإحلاله في المكان المفتوح على الخراب والدمار "بغداد"، ثمّ بالإحالة على الزمن المضبوط على فجيعة الغزو الأميركي للعراق، وما صاحبه من أحداث قتل وتفجير وملاحقات أمنية طالت القيادات السياسية والبسطاء من أبناء العراق جميعا.

سعت الرواية إلى خلق نوع من التّساوي في الحضور والتجاور في المكان "حي البتاويين"بين الفجائعي والطائفي الذي اختارته استهلالا (العجوز إيليشوا أم دانيال المسيحية، أم سليمان البيضة المسلمة، فرج الدّلال، هادي العتّاك والخرابة اليهوديّة...) وبين السيّاسي وعلاقته بالإعلامي (باهر السعيدي ومحمود السوادي...) وبين التسجيلي التوثيقي المتصل بأدب الحرب مع البوليسي المخابراتي لفترة ما بعد الغزو الأميركي للعراق "فهم محمود أنّ العميد سرور يتحاشى أيّ شائبة في صورته أمام الأحزاب الحاكمة. فهو في وضع حساس، ومثلما يتجسس هو على المواطنين هناك من يتجسس عليه لينقل الأخبار إلى أحزاب الحكومة التي لا تنظر إليه بارتياح بسبب ماضيه وعمله في خدمة النظام السابق. ولكنهم مضطرون لتقبله بسبب كفاءته المشهودة ودعم الأميركان له وحمايته من نزواتهم وشطحاتهم غير الحكيمة."[13]

وبين اليوميّ الكابوسي بإدراج عدد هائل من الشخصيات، مع العجائبي أو الخارق في تشكّل ذلك الكائن الغريب "الشِّسْمَه"من بقايا الجثث المتناثرة أشلاء جرّاء الانفجارات التي هزّت العراق وبغداد تحديدا في شتاء 2005، وإضافة إلى كلّ هذا نشر "السعداوي" في تضاعيف نصّه قصصا وحكايات وأخبارا فاضت عن حاجة الرواية، ودسّ شخصيات بدت متردّدة في التورّط في عالم جُرّت إليه فزلّت أقدامها فيه، وسرّب تفاصيل لم تسهم إلّا في تورّم النّص وتهالك بنيانه.

ولا نغالي إن قلنا: أرادت الرواية أن تقول كلّ شيء، ودفعة واحدة، فارتجّ عليها في أكثر من موضع، وراهنت على قدرتها على الاحتواء، فصارت كقابض على الماء خانته فروج الأصابع.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580

ولنا أن نطرح السؤال هنا: ما الذي روعي في اختيار هذه الرواية مع العلم أنّ في القائمة القصيرة نصوصا أعلى جمالية، وأعمق رؤية وأمتن شعرية؟

أمّا الرواية الفائزة لسنة 2015 ، فهي "الطلياني" للمبخوت، فيمكن القول إنّ إثارتها لجدل القراء والنقاد مبرّر، لأكثر من سبب، وأوّل هذه الأسباب وأهمّها أنّ المبخوت معروف ناقدا وباحثا أكاديميا، مجهول روائيّا، وهذا أوّل نص يصدر له، هذا إذا عددنا هذا المعيار على جانب من الوجاهة.

وثاني هذه الأسباب، أنّ الرواية نفسها لم تخرق شيئا من مألوف الرواية التقليدية على الإطلاق، حتّى إنّ الإجماع كاد أن ينعقد بين النقاد على "تمسّك المؤلّف بتقنيات الكتابة الروائية الواقعية من حبكة، وتشويق، وراو عليم، وإحالات مرجعيّة، ووضوح في الأطر الزمكانية." [14]

وكان أقوى ما راهن عليه المبخوت في هذه الرواية جانبان:

-صنع شخصيّة إشكاليّة "عبد الناصر" المكنّى بالطليانيّ"مناضل طبقي، وزعيم طلّابيّ يأكل جراد البحر ويعيش عيشة البرجوازية."[15]شكّلها من ذاته، ومن ذوات أخرى يعرفها أو تعرفه، يقول أحد النقاد التونسيين: "أوّلا لانكشاف عبد الناصر، صورة منّا أو من بعض ذوات فتيّة حال العقدين الأخيرين من القرن الفائت."[16]

- التوغّل في طلب تيمات بعينها كالسّياسة والجنس، واقتحام مناطق فيهما تبدو مقصودة لذاتها، خاصة في الثانية منهما، وقد مال في ذلك إلى التعبير الصراح، وكأنّما يرغب في أن يصدم القارىء صدما باطمئنان بالغ إلى طاقات لغة شعريّة متعالية يمتلكها، وآلة وصف تطاول ما يروم.

وهكذا، وبعد الذي عرضنا، ينتصب السؤال: هل استنفدت الرواية موضوعاتها فعادت إلى الواقعي المرجعي تنقله وتعيد نتاجه؟ هل بذلت كلّ طاقاتها الجمالية والشعرية؟ ألم يَعُد ثمة ما يدهش ويمتعُ؟ قلّبنا هذه المدوّنة مليّا، جُلنا في هذه العوالم التخييلية، وألفيناها تحمل في أطوائها ما كانت به أهلا لنيل جائزة، ولكنّه لا يمكّنها من مطاولة أعمال حازت على وسم العالمية لا لشيء إلّا لأنّها أوصلت إلى قارئيها في العالم إلى الإقبال عليها، والتفاعل معها،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580

بغضّ النظر عن جنسيات أصحابها، وليس من دليل نسوقه في هذا المقام أجلى من تجربة الروائي "باولو كويلّو".

الهوامش:

1- جابر عصفور، **زمن الرواية**، سلسلة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص 24.

2- عبد الله إبراهيم، **التخيل التاريخي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011، ص 307.

3- المرجع نفسه، ص 158.

4-سليمة لوكام، **متون و هوامش**، دار سحر للنشر، تونس، 2012، ص 167

5-علي المقري، **اليهودي الحالي**، دار الساقي، ط3، 2012، ص 141.

6- المصدر نفسه، ص 25.

7- المصدر نفسه، ص، ن.

8- أحمد المديني، **تحوّلات النوع في الرواية العربية بين مشرق ومغرب**، دار الأمان، الرباط، ط1، 2012 ، ص 317، 318.

9- ربيع جابر، **دروز بلغراد**، دار التنوير، ط4، 2012، ص 12.

10- المصدر نفسه، ص، 11.

11- المصدر نفسه، ص، 204.

12- سلوى السعداوي، **الحبكة السردية وتأويل مصائر الشخصيات**، مجلة الفكر الجديد، ع 03، جويلية 2015، تونس.

13- أحمد السعداوي، **فرانكشتاين في بغداد**، منشورات الجمل، ط8، 2014، ص 91.

14- محمد آيت ميهوب، **الطلياني بين التأريخ و التخييل**، مجلة الفكر الجديد، ع 03، جويلية 2015، تونس.

15- شكري المبخوت، **الطلياني**، دار التنوير، ط5، بيروت، 2015، ص 102.

16- عادل الغزال، الطلياني. **ورقات من مرويّات العباد والبلاد**، مجلة الفكر الجديد، ع 03 ، 2015، تونس.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/580